بسم الله الرحمن الرحيم

أبو بكر الزبيدي الإشبيلي رائد تيسير العربية

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله بن مذحج الزبيدي[1] من أهل اشبيلية، والزُّبيدي نسبة إلى زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة، رهط عمرو بن معدي كرب. [2] ويشير الصفدي إلى أن أصله من حمص الشام، بعد أن يقدِّم لنسبه بعبارة "الزبيدي المغربي النحوي"[3] وقد تفرد الصفدي بهذه الرواية، وربما كانت لنزعته الشآمية أثر في ذلك.

واختاره المستنصر بالله، صاحب الأندلس لتأديب ولده، ولي عهده هشام المؤيد بالله. سكن الزبيدي قرطبة، فنال جاهاً عظيماً ورياسة. ويحدثنا معاصره ابن الفَرضي بأنه سمع من قاسم بن أصبغ وسعيد بن فحلون وأحمد بن سعيد، وقيَّد اللغة والأشعار عن أبي علي البغدادي، وكان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، وتوفي بإشبيلية يوم الخميس مُسْتَهَلَّ جمادى الآخرة، سنة تسعٍ وسبعين وثلاثمئة. [4]

وتجمع الروايات التي بين أيدينا أنه كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على وفور علمه، منها: "مختصر كتاب العين"، وكتاب "طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والقيروان والأندلس، من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن شيخه أبي عبدالله النحوي الرَّباحي"، وكتاب لحن العامة، وكتاب "الواضح"[5] في العربية، وقد وصفه ابن خلكان بقوله: وهو مفيد جداً. ويصف الثعالبي كتابه "الأبنية في النحو" بقوله: ليس لأحدٍ مثله، وله كتاب الرد على ابن مسرة وأهل مقالته، سماه: " هتك ستورالملحدين". وكان شاعراً كثير الشعر، وله شعر مصنوع ومطبوع، وإن كان الشعر أقل أدواته. [6]

---

(1) انظر: ابن الفرضي، ص366.
(2) بغية الوعاة: ج1 ص84–85.
(3) الوافي بالوفيات: ج2 ص351.
(4) انظر: ابن الفرضي، ص366، وفيات الأعيان، ج4 ص372.
(5) حققنا كتاب "الواضح" لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي، ونشرته الجامعة الأردنية، عمان 1396هـ – 1976م وقد حرصنا أن يصدر مشكلاً شكلاً تاماً، فوقعت بعض الأخطاء المطبعية. وقد فرغنا من أعداده في طبعة جديدة، ستظهر قريبا إن شاء الله.
(6) انظر: يتيمة الدهر، ج2 ص70، جذوة المقتبس، ص42، بغية الملتمس: ص56، إنباه الرواة، ج3 ص108–109، وفيات الأعيان: ج4 ص372.

فالروايات التي وصلتنا تجمع، كما أشرنا سابقاً، على أن الزبيدي كان من الأئمة في اللغة والنحو، وأنه قد اختصر كتاب "العين" للخليل بن أحمد اختصاراً حسناً. ويذهب صاحب مطمح الأنفس إلى القول: إنَّ اختصار "العين" للخليل معدوم النظير والمثيل. وربما كان من المفيد أن نتوقف عند ما أثير حول: "الغلط الذي وقع في كتاب العين"، وما قصده الزبيدي في مختصره، إذ اعتبر مجرد الاعتراض على الخليل بن أحمد تهمة شنعاء توجه إليه، ولم يدر في خلده أنه في استدراك الغلط الواقع في كتاب العين، إنَّما يعترض على الخليل بن أحمد أو يخطئه. فهذا الزبيدي يخاطب بعض إخوانه برسالة يوردها القفطي في قائمة مؤلفاته، بعنوان: رسالة "الانتصار للخليل"[1]، ومنها ما أورده السيوطي: "قال أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي اللغوي، مؤلف مختصر العين في أول كتابه –استدراك الغلط الواقع في كتاب العين– وهو مجلَّد لطيف، يخاطب بعض أخوانه:

"وصل إلينا أيَّدك الله كتابُك، تذكر فيه ما أولع به قومٌ من ضَعَفَة أهل النظر من التحامل علينا، والتسرع بالقول فينا، بما نسبوه إلينا من الاعتراض على الخليل بن أحمد في كتابه، والتخطئة له في كثير من فُصُوله، وقلت: إنهم قد استمالوا جماعة من الحشوية إلى مذهبهم، وعدلوا بهم إلى مقالتهم بما لبَّسُوا به، وشنَّعوا القول فيه"... إلى أن يقول: " أوَ ليس من العجب العجيب، والنادر الغريب أن يتوهَّم علينا مَنْ به مُسْكَة من نَظَر، أو رَمَق من فَهْم، تخطئة الخليل في شيء من نظره، والاعتراض عليه فيما دَقَّ أو جَلّ من مذهبه، والخليل بن أحمد أوحَدُ العصر، وقريعُ الدهر، وجهبذ الأمة وأستاذ أهل الفطنة، الذي لم يُرَ نظيره، ولا عُرِف في الدنيا عديله، وهو الذي بسط النحوَ، ومَدَّ أطنابه، وسبَّب عِلَله،وَفَتَقَ معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته، ثم لم يرضَ أن يؤلّف فيه حرفاً أو يَرْسُمَ منه رسماً، نزاهة بنفسه، وَتَرفُّعاً بقدره، إذ كان قد تقدَّم إلى القول عليه والتأليف فيه، فكره أن يكون لمن تقدَّمه تالياً، وعلى نظر مَنْ سَبَقَهُ محتذياً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، ولقَّنه من دقائق نظره، ونتائج فكره ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلَّده، وألَّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدَّم فيه، كما امتنع على مَنْ تأخَّر بعده...." [2]

(1) القفطي، إنباه الرواة، ج3 ص108–109.
(2) المزهر، ج1 ص79–81.

ونحن في هذه الإشارة إلى موقف الزبيدي من كتاب "العين" للخليل وإلى " الكتاب" لسيبويه، نريد أن نبين إلى أن العالم الكبير والإمام في اللغة والنحو والشاعر والأديب هو الذي انبرى إلى تيسير العربية، لجعلها سائغة سهلة أمام الشُّداة، ومن هم قريبون منهم في الحياة العامة، لحاجتهم إلى تثقيف القلم واللسان، فوضع كتاباً سمَّاه "الواضح"، ووضع كتاباً آخر حرص فيه على سلامة العربية في الأندلس نطقاً ودلالة وسماه "لحن العامة". لقد اتجه الزبيدي إلى معالجة قضايا العربية التي تهمُّ عامة الناس وجماهير المثقفين، وقد اختلف منهجه تبعاً لاختلاف الهدف. فقد ميَّز بين ما هو ضروري للحياة العامة، لغةً ونحواً وبين ما هو خاص بالعلماء والمتخصصين.

فقد أدرك أئمة النحاة، لا سيما في القرن الرابع الهجري، في المشرق العربي كما هو في المغرب العربي والأندلس، أن هناك اختلافاً جوهرياً بين منهج يهدف إلى دراسة جزئيات النحو ودقائق اللغة، وبين منهج يهدف إلى تيسير تعليم اللغة للناشئين والراغبين في تعلمها. ونحن نلمس، مثلاً، هذا الفرق واضحاً، بين منهج كتاب " اللُّمَع" لابن جنيّ، حيث يقتصر على عرض الأبواب النحوية وقضاياه الظاهرة والمعروفة، وبين كتابه "الخصائص"، حيث يعرض آراءه النحوية، وما يقوده إليه الاجتهاد. وكذلك الحال فيما يتعلق بمنهج كتاب "الواضح" للزبيدي وبين المنهج الذي اتبعه في كتابه "الأبنية" وكتابه مختصر "العين" للخليل بن أحمد.

لقد تميز القرن الرابع الهجري في المشرق العربي كما هو في المغرب والأندلس، بظهور المصنفات الموجهة إلى تعليم العربية نحواً ولغةً، كما تميَّز في الوقت نفسه بظهور المصنفات العلمية التي تبحث في دقائق النحو ووجوه اللغة..

فالإمام أبو محمد بن حزم مثلاً في أوائل القرن الخامس الهجري، يحلُّ اللغة مكانة سامية في حياة الأمة، إذ يقول: "يُفيد لغة الأمة وعلومَها وأخبارَها، قوةُ دولتها ونشاطُ أهلها وفَراغُهم. وأما مَنْ تَلفَتْ دولتُهم، وغلب عليهم عدوُّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذلِّ وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موتُ الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيور علمهم. [1]

(1) انظر: ابن حزم، الأحكام، ج1 ص32.

ويخصّ ابن حزم أيضاً "النحو" مكانة مهمة في تكوين الأئمة من الفقهاء. يقول: "ففرض على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب، ليفهم عن الله –عز وجل– وعن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويكون عالماً بالنحو الذي هو: ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل به القرآن، وبه يفهم معاني الكلام التي يعبَّر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ. [1]

لقد كان التمييز واضحاً، منذ القرن الرابع الهجري بين النحو من حيث هو علم ووجه فاضل من أبواب المعرفة، وبين النحو من حيث هو ضرورة لتقويم القلم واللسان، ووسيلة لقراءة الكتب المجموعة في العلوم وفهمها. فهذا الإمام ابن حزم أيضاً يقول: "واللغة هي ألفاظ يعبَّر بها عن المعاني، فيقتضي من علم النحو كلُّ ما يتصرف في مخاطبات الناس، وكتبهم المؤلفة، ويقتضي من اللغة المستعملُ، الكثير التصرف... وأقلُّ ما يُجزئ من النحو كتاب "الواضح" للزبيدي.... وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط. فمن يزيدُ في هذا العلم إلى أحكام كتاب سيبويه فحسن..."[2].

ونحن نولي رأي الإمام ابن حزم، في كتاب "الواضح" أهمية خاصة. فقد وُلِد الإمام الفقيه صاحب المحلَّى والفِصَل والأحكام، والأديبُ صاحب طوق الحمامة، وكتاب:"مداواة النفوس" والشاعر الملهم، أهمية خاصة، فقد وُلِدَ في قرطبة سنة 384هـ، أي بعد وفاة الزبيدي بخمس سنوات. وأشاد بكتاب "الواضح" للزبيدي وبقيمته التَّعليمية وما يقتضيه كثرة الاستعمال للتعبير عن حاجات الحياة العامة.

اتجه الزبيدي في كتابه "الواضح" اتجاها عملياً لكل ما يفيد في "مخاطبات الناس" وقراءة "كتبهم المؤلفة"، فاستعان لتوضيح القواعد النحوية بإيراد الأمثلة السهلة الشائعة الاستعمال، القريبة من الحياة اليومية، وبيئة المتعلم، مثال ذلك: "كان زيد عندنا، وأمسى أبوك في المسجد، وما أظرفَ القومَ. وما أجملَ الرجلين، ما أحسنَ إسراجَ زيدٍ...الخ. ونلاحظ أنه قد تجنب في كتابه هذا الاستشهاد بالشعر وبالقرآن الكريم وفصيح الكلام، واقتصر على إيراد بعض الشواهد الشعرية في "باب وجوه القوافي في الإنشاد والحداء" هذا مع العلم أن هذا الباب لا يخصُّ قواعد النحو وإنما يخصُّ الشعر وأوزانه. وقد خرج الزبيدي في كتابه

(1) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج2 ص193.
(2) انظر: ابن حزم، مراتب العلوم (رسائل ابن حزم المجموعة الأولى) ص64.

"الواضح"، من حيث الاستشهاد، على نهج النحاة السابقين مثل: إبن جني في كتابه "اللّمع" والزجاجي في كتابه "الجمل".

وربما كان من الضروري من أجل فهم منهج الزبيدي التعليمي في كتابه "الواضح"، أن ننظر في موقفه من الاستشهاد في كتابه "لحن العامة". فقد عني في "لحن العامة" بالاستشهاد بالآيات القرآنية، فأورد منها حوالي ست عشرة آية، وبالاستشهاد بالحديث النبوي والأثر في حوالي أربعة وثلاثين موضعاً، واستشهد بحوالي اثني عشر مثلاً، وبحوالي مئة وثمانين بيتاً من الشعر، وبحوالي خمسة وأربعيناً بيتاً من الرجز. وكان مجموع أقوال العامة التي تناولها الزبيدي في كتابه هذا، حوالي أربع مئة واثنين وستين قولاً، رتبت حسب أوائلها دون تمييز بين الأصلي والمزيد..."[1]

فالزبيدي في هذين الكتابين: "الواضح" و "لحن العامة" يتبع، عن قصدٍ وروية، منهجين مختلفين باختلاف الأهداف التي ينبغي تحقيقها. إنه يميز بين وسيلته لتيسير قواعد النحو وتسهيل تعلم العربية، بتقريبها من بيئة المتعلم وشؤون حياته اليومية، في كتابه "الواضح"، وبين حرصه على سلامة العربية، لفظاً ونقاءً في كتابه "لحن العامة"، حيث يستشهد بفصيح الكلام من القرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار العرب وأمثالهم ليثبت صحة قوله. فاللغة، وأية لغة، هي نطقها ونظمها وإلاَّ أصبحت لغة أخرى.

ومما له دلالته، أن الزبيدي، لم يلتزم في كتابه "الواضح" مدرسة نحوية معينة، وهو الذي ألف كتاباً في طبقات اللغويين والنحويين، وعلى الرغم من أنه عُني أشد العناية بـ"كتاب سيبويه"، وكان من شيوخه من يعتبر حجةً في نحو البصريين، فقد كان يتبع الرأي الذي يجده أقرب إلى تحقيق أهدافه لتيسير العربية وتسهيلها. فكان يتبع آراء البصريين أحياناً، وأحياناً أخرى يتبع رأي الكوفيين، وقد يجتهد في الترجيح، فيشير بين الفينة والأخرى إلى ما يراه "قبيحاً" في الاستعمال، وما هو "أحبُّ" إليه. وقد يكون ما يعتبره "أحبَّ إليه" مخالفاً لما عليه جمهور البصريين.

أقام الزبيدي منهجه في كتابه "الواضح" على وحدة اللغة بنحوها وصرفها ونطقها، الأسس التي تشكِّل ثوابت اللغة، إذ إنَّ الإخلال بأي منها يؤدي إلى الخروج عن جوهر اللغة، والسيرورة إلى لغةٍ أخرى. فقد عرض قواعد النحو من حيث ارتباطها بالمعنى، ومن

(1) انظر: الزبيدي، لحن العامة، تحقيق الدكتور عبدالعزيز مطر، القاهرة، 1981.

حيث عدم الفصل بينها وبين اللغة. وعرض موضوعات الصرف[1]، وأولاها اهتماماً كبيراً، وعُني بصوتيات اللغة. ففي باب تخفيف الهمزة مثلاً يقول: "واعلم أن من العرب من يقلب الهمزة ياءً، فيقول: قرِيتُ وأخْطيتُ". ثم يعقب عليه بعبارة "وذلك قليل لا يقاس عليه". وتحدَّث عن إدغام الحروف بعضها في بعض، واعتمد في ذلك ما جاء في كتاب سيبويه. فأوجز ما أورد من مخارج الحروف وصفاتها من الجهر والهمس والشدة والرخاء.. الخ وعالج أيضاً وجوه القوافي في الإنشاد والحداء... وتحدَّث عن الروي والوصل والردف والنفاذ، متبعاً في ذلك منهج الخليل بن أحمد... ومما تجدر ملاحظته أنه ساق عشرة شواهد من الشواهد الشعرية، على مسائل عروضية تتعلق بالقافية ونطق العرب بها في مختلف لهجاتهم، في حين أنه لم يورد سوى شاهدٍ شعري واحد على بعض مسائل النحو. [2]

ويذهب الزبيدي في منهجه بعيداً في تبسيط القواعد المعقدة، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد اعتبر مثلاً "حبذا" كلمة واحدة، وأَنَّ " ذا " جزء من الكلمة، بل بمثابة حرف "الباء" من كلمة "ضرب". فيقول في إعراب "حبذا": "وأما حبَّذا، فمعناها المدحُ، وأصلها: حَبَّ ذا الشيءُ. فحبَّ: فعلٌ ماضٍ. وذا: اسم المُشَارُ إليه. ثم كثر استعمالها حتى صار حَبَّ وذا كلمة واحدة، وصارت "ذا" كالباء من "ضَرَب"، فارتفع ما بعدها من الأسماء بها. تقول: حَبَّذا عبدُالله. فعبدالله: رفعٌ بحبَّذا. وكذلك: حَبَّذا الرَّجلان. وحبذا المرأةُ. وزعم قوم أن عبدالله ابتداء، وحبّذا خبره. والذي قدمتُ أحبُّ إلي." [3]

وهذا شأن الزبيدي في واضحه، في التيسير وتسهيل المعقد، وقد يشير إلى رأي الآخرين، وكثيراً ما يختم بعبارة "والذي قدمتُ أحبُّ إلي".

وقد يذهب بعيداً في تحدي ما اصطلح عليه في بعض قواعد النحو، مثال ذلك، ما جاء في "باب الحروف التي ترفع ما بعدها من الأسماء والأخبار"،

وهي: "إنَّما وكأنَّما ولعلَّما وليتما وَبَيْنَما وبَيْنا وإذْ وإذا وكيف ومتى وأين وهل وبل وحيثُ وكأنْ ولكنِ الخفيفة النون". فهذه الحروف يرتفع ما بعدها من الأسماء بالابتداء. تقول: إنَّما

---

(1) الصرف ميزان العربية، وقد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا عن طريق التصريف، وأنه لا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به. انظر: ابن عُصفور الإشبيلي، "الممتع في التصريف"، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، بيروت/ ج1 ص27-33.

(2) انظر: عبدالقدوس الأنصاري، مع كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي النحوي، بريدة، 1407هـ - 1987م / ص41.

(3) الزبيدي، الواضح، ص98.

زيدٌ منطلقٌ. إنَّما تأكيد وَصِلَةٌ للكلام، وزيدٌ ابتداءٌ، ومنطلقٌ خبر الابتداء. وكذلك: "إنما أخواك أخواناً. أخواك ابتداء، وأخوانا خبرٌ الابتداء.

....وكأنما حرف تشبيه... ولعلَّما حرف توقع، وليتما حرف تمنٍ، وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر. [1] فيشير إلى أن "كأنما" حرف... و "لعلّما" حرف... و "ليتما" حرف... مخالفاً في ذلك ما ذهب إليه جمهور النحاة. ويستعمل الزبيدي مصطلح "الجمع" وأحياناً "الجميع" بمعنى واحدٍ، ويسمّى جمعي المذكر السالم والمؤنث السالم، باسم "جمع السلامة"، فيقول: "وجمعُ السَّلامة هو الذي يَسْلَم فيه بناء الواحد، فتكون حروفه في الجمع على ما كانت عليه في الواحد، في حركاتها وسكونها، كقولك في الجمع الذي على حدِّ التثنية: مسلم ومسلمون، وصالح وصالحون، إلا ما في الأسماء من زيادة الواو والنون بعد تمام الاسم... ونظير هذا الجمع جمع المؤنث الذي يكون بالألف والتاء الزَّائدتين، كقولك: مُسْلمة ومسلمات، وقائمة، وقائمات.. واعلم أن هذا الجمع رفعه بضمِّ التاء وَخفْضُهُ ونصبه بكسر التاء..."[2]

ويسهِّل الزبيدي تعريف قواعد النحو، ويقربها إلى أذهان الناشئة. فالأفعالُ عنده على ثلاثة أضرب: ضربٌ منها أفعال ماضية قد ذهبت وتقضَّت، وهي مفتوحة الأواخر أبداً، كقولك: خَرَجَ ودَخَلَ... والضرب الثاني مستقبلة، منتظرة، لم تقع بعد، كقولك: يخرج ويدخل... والضرب الثالث أفعال واقعة في الوقت الذي أنت فيه، لم تَنقَض ولا انقطعت بعدُ، كقولك: يصلِّي ويأكلُ... وهذه الأفعال تسمى الدائمة. ولا تخلو هذه الدائمة ولا المستقبلة من الزوائد الأربع.... وهي مرفوعة الأواخر أبداً، ما لم يعمل فيها عاملٌ بنصبٍ أو جزم. [3]

ويطلق على ما يسميه النحويون "نائب الفاعل"، أنه مفعول به مرفوع، لفعل لم يذكر فاعله، فقولنا: "ضُرِب زيد". ضُرِبَ فعلٌ ماضٍ. وزيدٌ" مرفوع لأنه مفعول لم يُسمَّ فاعله. فقام مقام الفاعل، إذ من الواضح أنَّ "الضرب" قد وقع عليه... وقام مقام الفاعل... ولنقل مثل ذلك في :كُسِر الزجاج". فالزجاج قد وقع عليه فعل الكسر، وهو مرفوع لأنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله... ويعرب الزبيدي جملة "سَيُكْرَمُ زيد. سَيُكْرَم: فعل مستقبَلٌ. وزيدٌ مفعول لم يُسَمَّ

(1) انظر: الزبيدي، الواضح، ص65.
(2) الزبيدي، الواضح، س87.
(3) الزبيدي، الواضح، ص39.

فاعله... فإنه يعتبر أيضاً "سَيُكرم" كلمة واحدة، ولا يتحدث عن السين ولا عن أثرها في زمن الفعل... إلخ

ويستعمل الزبيدي مصطلح "الخفض" بدلاً من مصطلح "الجر".... ويستعمل مصطلح "الكناية" و "الأسماء المكنيات" بدلاً من مصطلح "الضمير والضمائر"...[1]

ويجعل الزبيدي ما يسميه النحاة "التوكيد"، في بابي "نعوت الإحاطة" و "نعوت التخصيص"[2]، ويعرِّف الأفعال الماضية أنها مفتوحة الأواخر، غير معربة، كقولك: مَرَّ وخرج وانطلق...[3] فالأفعال في نظره، أفعال مُعْرَبة وغير معربه، بدلاً من تسميتها: "أفعال مُعربة ومبنية"... ويسمي ما يطلق عليه النحاة "التمييز" مصطلح "التفسير"، وهو في ذلك كله يهدف إلى تقريب معاني هذه المصطلحات النحوية إلى أذهان المتعلمين، مثال ذلك، قوله : "لأنك حين قُلْت: هؤلاء أحَدَ عَشَرَ. لم يُعْرف ما هذا المعدود، حتى قُلت: رجلاً.ففسرت المعدود[4]. ويُؤثر الزبيدي استعمال مصطلح "الخفض" بدلاً من مصطلح "الجر"... ويتتبع المرحوم الشيخ عبدالقدوس الأنصاري. [5] آراء الزبيدي في كتابه مع "الواضح" تقريظاً ونقداً وتحليلاً.

ويشيد الأنصاري، رحمه، الله– بأسلوب الزبيدي ووضوحه في التعريف بالقواعد النحوية في كثير من أبواب "الواضح"، إذ يتحدث عن "باب تصغير الأسماء المبهمة"، فيقول: "فهذا البحث الذي لا يخلو من تعقيد، بسطه المؤلف بجمال بيانه وقدرته في اللغة العربية، بحيث

---

(1) انظر: الزبيدي، الواضح، ص46، ص51.

(2) انظر: الزبيدي. الواضح، ص54، ص55,

(3) انظر الزبيدي، الواضح، ص67.

(4) انظر الزبيدي، ص100، 143، 144.

(5) وإن الواجب يقضي بأن أنوّه بالعمل اللغوي الذي كتبه العلامة الفقيه الإمام اللغوي المرحوم الشيخ عبد القدوس الأنصاري، أحد أبناء المدينة المنورة، احتفاءً بنشر كتاب : "الواضح" لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي. فقدم بحثاً لغوياً قيماً، جمع فيه ملاحظاته وتعليقاته وعقَّب عليها وشرحها، وتركها في مخطوطة صغيرة، قام بنشرها نادي القصيم الأدبي في بريدة، مشاركة مع مجلة المنهل السعودية، 1407هـ– 1987م، إحياء لذكراه، تحت عنوان:
مع كتاب "الواضح" لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي النحوي،.....عرض ونقد وتحليل بقلم عبدالقدوس الأنصاري. وصدَّره رئيس نادي القصيم بكلمة. وقدَّم له العلامة المحقق الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، وكتب "تعليقاً َ على التعليق" الأستاذ الدكتور عبدالله درويش عميد كلية العلوم في جامعة القاهرة سابقاً.

فاق كلَّ ما كتبه وخطط له وتوخاه العلماء المحدثون من تبسيط القواعد للناشئين وشداة النحو...[1]

ويعلِّق الأنصاري – رحمه الله– على "باب الصفات" مثلاً، فيقول: "عقد المؤلف أحد الأبواب الواسعة في تبيان الصفات مما كان على وزن: فَاعِل أو مُفْعِل، ومما كان على وزن فَعُول بمعنى فَاعِل أو مَفْعُول. ومما كان على وزن مِفْعِيل أو مِفْعَال، ومما كان على وزن فَعِيل بمعنى مَفْعُول. وقد قدَّم لطلابه وقرائه (مفصلاً) ممتازاً بالشمول وغاية الإيضاح، في الأحكام التي أعطاها لكل واحدة من هذه الصفات، مبيناً وشارحاً شرحاً يدخل إلى الأذهان، بدون استئذان، في الأسباب والبواعث اللغوية التي أعطت كل وزن بأي معنى من تلك المعاني حكمه في إلحاق هاء التأنيث به أو لا...". وكثيراً ما يدعم الأنصاري – رحمه الله– أحكامه بإيراد نصوص كاملة من كتاب "الواضح"، إذ يقول مثلاً، معلقاً على هذا الباب:

"ونحن لجمال أسلوبه وشفوفه نورد لك نصوص ذلك الباب، لتحيط علماً بمدى عمق علم الزبيدي في اللغة العربية، ومدى قوة بيانه مع بساطته وسطوع تحليلاته وشمول شروحه ودقة آرائه وإحاطته بتعلم النحو ومشاكله ومشكلاته وعُقَدِه...الخ." ويورد من "باب التذكير والتأنيث"، ما أشار إليه الزبيدي تحت عنوان "باب منه آخر:" اعلم أن كل اسم كان على فَاعِل أو مُفْعِل، مما ينفرد به المؤنَّث، فإنه يكون بغير هاء، نحو: امرأة حَامِل وطَاهِر...."[2]

ويعقّب الأنصاري على هذا النصّ بقوله: "وبعد، فقد لمست مما قرأته أيضاً، كيف يكون قدرة المتبحِّر في العلم الذي أوتي قسطاً كبيراً من القدرة البيانية على تبسيط القواعد، وجعل معقدها واضحاً، وتقريبها على طرف التمام، كما يقولون، لمن يطلبون معرفتها، من أيسر السبل وأوضح التعبيرات..." [3] .

وخلاصة القول: فقد نظر الزبيدي في كتابه "الواضح" إلى أن اللغة وحدة واحدة، وأنها لا يمكن أن تفصل عن النحو والصرف والاشتقاق وصوتيات اللغة وتجويد نطقها بل وفقهها أيضاً. فوضع كتابه هذا لغايات تعليمية، وسلك به سبيل السهولة واليسر. ونظر، في جميع الأحوال، إلى قواعد العربية من حيث ارتباطها بالمعنى، فلم يلتزم بمدرسة نحوية بعينها، وهو العالم النحوي صاحب "طبقات النحويين... "والمختصر" للخليل ، فعني بإيراد الأمثلة الشائعة

(1) الأنصاري، مع الواضح، ص82.
(2) انظر: الزبيدي، الواضح، ص224–225.
(3) انظر: الأنصاري، مع الواضح، ص85.

الاستعمال، لتوضيح قواعد العربية وتقريبها من أفهام الشداة وعامة المثقفين، وجعلها سهلةً سائغةً بين أيدي الدارسين...

إنَّ ألف عام تقريباً تفصل بيننا وبين الزبيدي الإشبيلي صاحب كتاب "الواضح"، وما زلنا نجد أصداء تقويم الإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي لكتاب "الواضح" في القرن الخامس الهجري، تتجاوب وآراء كثيرٍ من الباحثين وأعلام اللغويين في الوقت الحاضر، في القرن الخامس عشر للهجرة...

إن نظرة شاملة على التآليف النحوية التي وصلت إلينا عبر هذه القرون، تبين لنا أن جميع هذه المصنفات يمكن أن تصنف في مسربين رئيسيين: يمثل أحدهما المصنفات المتعمقة في دقائق النحو وفي فقهه وفلسفته، ويمثل المسرب الآخر، المؤلفات التي وضعها أئمة النحو، تجاوباً مع الأهداف الأساسية، التي من أجلها وضع هذا العلم في مجال تقويم القلم واللسان...

ونخلص إلى القول: إنَّ أئمة اللغة والمتبحِّرين في نحوها وصرفها ولسانياتها، هم القادرون وحدهم على تيسيرها. لقد وضع سيبويه "الكتاب" في النحو في القرن الثاني الهجري، مستوعباً آراء شيخه "الخليل بن أحمد". وأجمع القدماء والمحدثون على اعتبار "الكتاب" إمام النحو، وبقي المصدر الأساس لنحو العربية عبر القرون، حتى العصر الحاضر. وظهر علماء أفذاذ وقفوا حياتهم على البحث في دقائقه... وإلى جانب هذا المسار، نجد أنفسنا في القرن الرابع الهجري، عصر الازدهار العلمي في جميع مجالاته، في المشرق كما هو في المغرب والأندلس، أمام مسارٍ يأخذ على عاتقه تيسير النحو وتسهيل تعلمه، ومن أهمها إلى جانب كتاب "الواضح" للزبيدي (المتوفى سنة 379هـ) كتاب "الجمل في النحو" لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجّاجي (المتوفى سنة 340هـ) وكذلك كتاب "اللّمع في العربية" لأبي الفتح عثمان بن جني (المتوفى سنة 392هـ).

ولا شك أن آخرين غيرهم قد سلكوا هذا المسار في القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري، مثل أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي [1]، الذي تذكر الروايات في قائمة كتبه التي ألفها كتاب "الموضَّح في النحو"، وأثنى عليه النديم في كتاب

(1) أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري من أهل الأنبار توفي سنة 328هـ، ذكره النديم صاحب كتاب الفهرست (المتوفى سنة 380هـ) وأثنى عيه. وأورد قائمة من كتبه، ومنها كتاب "الواضح في النحو" انظر: النديم، كتاب الفهرست، ص81–82. وقد عده الزبيدي من أعلام الطبقة السادسة من النحويين الكوفيين أصحاب ثعلب، انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص171–172.

الفهرست، قائلاً "كتاب الواضح في النحو كبير"[1]، وأن مؤلفه أبا بكر يضرب به المثل في حضور البديهة. ومما تجدر ملاحظته كما أشرنا سابقاً، أن أئمة اللغة والنحو والأدب والتفسير، هم الذين يتصدون لتيسير النحو وتقريبه من إفهام الناشئة ومن هم قريبون منهم. فأبو بكر ابن الأنباري البغدادي صاحب كتاب "الموضَّح في النحو" أو "الواضح في النحو" هو نفسه صاحب "كتاب المشكل في معاني القرآن" الذي لم يتمه، "وكتاب الأضداد في النحو"... و"كتاب الكافي في النحو" و"كتاب المقصور والممدود" و"كتاب غريب الحديث" الذي لم يتمه... إلى جانب عمله عدة دواوين من أشعار العرب الفحول[2].

إن هذا التراث اللغوي الخصب، الذي لم يصلنا إلا أقله، يشكل مصدراً مهماً ومنطلقاً علمياً قويماً لتيسير العربية، وجعلها سهلة سائغة ذائعة الانتشار، تواكب العصر وتستوعب جميع العلوم والآداب والفنون وحصيلة ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية، في خضم هذه الثورة المعرفية المتسارعة التي تجتاح العالم من حولنا. فالعربية شأنها شأن جميع اللغات الحية، تحتاج إلى أن تكون موضوع دراسات لغوية وعلمية ونفسية واجتماعية ولسانية، توفِّر لها أسباب النماء والازدهار. فالجامعات ومراكز البحث العلمي مدعوة للقيام بهذا الواجب العلمي واللغوي والقومي، بتوفير المختبرات اللغوية والأجهزة الحاسوبية والباحثين اللغويين والعلميين المتخصصين على غرار ما تفعله الأمم المتقدمة.

فالعربية تعاني من مشكلات ذاتية في "الرسم" و"النحو" والشَّكل واستيعاب المصطلحات في جميع مجالات العلوم والفنون والتقنيات الحديثة، وإن التجديد والتيسر في إطار النمو الذاتي الذي لا يمس ثوابت اللغة، في قواعد نظمها وصرفها ونطقها، بات ضرورة حتمية من أجل الانتقال إلى مرحلة بناء الأجهزة الحاسوبية وشبكة الاتصالات (الانترنيت)، والهاتف المحمول، والتقنيات الحديثة في خضم الثورة المعرفية التي تجتاح العالم منذ نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، وذلك أن تبنى هذه الأجهزة وفق خصائص اللغة العربية، بدلاً من تطويعها وَلَيِّ عنقها، كما هو الحال في الوقت الحاضر، لتلائم الاستعمال

---

(1) جاء في الرواية التي بين أيدينا، في كتاب الفهرست للنديم، ذكر كتاب الأنباري بعنوان: "الموضَّح في النحو" وكذلك بعنوان: "الواضح في النحو" وربما أن الزبيدي الأندلسي الذي عدَّ أبا بكر الأنباري من أعلام الطبقة السادسة من النحويين الكوفيين أصحاب ثعلب، قد تأثر بكتابه "الواضح في النحو"، هذا مع العلم أن كتاب الأنباري لم يصل إلينا.

(2) انظر: النديم، كتاب الفهرست، ص81-82.

في هذه الأجهزة والتقنيات الحديثة التي بنيت من حيث الأساس، وفق خصائص لغات أخرى.

إن مجمعنا الدمشقي، رائد العربية، قد استوحي موضوع مؤتمره السنوي لعام 2008م، تحت عنوان: "التجديد اللغوي"، من أجواء التحديات الذاتية التي تواجهها العربية نحواً وإملاء وبلاغة ومعجمية، وما يتصل بمناهج التعليم وأساليبه وما يتعلق بالتقنيات والترجمة وصناعة المصطلح". وإن هذا كله وغيره من المعطيات، يضع الأمة العربية في جميع أقطارها ودولها وكياناتها السياسية، أمام مسؤوليتها التاريخية، بالالتزام بسياسة لغوية عربية، تكون مركز عناية المؤسسات الرسمية في أعلى مستوياتها التشريعية والقضائية والتنفيذية، وتجد طريقها للتنفيذ الحاسم في المؤسسات التعليمية والجامعية ومراكز البحث العلمي ، وكذلك في المؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإعلامية. إنها سياسة لغوية عربية، توجب احترام لغة الأمة وتحبيبها إلى نفوس أبنائها، وتنمية الاعتزاز بها وذلك بالحرص، بمختلف الوسائل، على سلامتها وحسن استعمالها وسعة ذيوعها وانتشارها. فالعربية الفصيحة هي فكر الأمة العربية وجوهر هويتها، تتقدم وتزدهر بازدهار الأمة، وتتراجع بتراجعها، وإن قوانين تقدم الأمم ونواميس الحياة تقضي بأنه لا إبداع ولا مشاركة أصيلة في بناء الحضارة العالمية، ولا سيادة ولا استقلال إلا من خلال العربية الفصيحة (السليمة)، لغة الأمة على الامتداد الجغرافي وعبر القرون. فهي لغة عالمية حيَّة منذ حوالي أربعة عشر قرناً، وهي لغة خالدة بخلود القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وأسأله تعالى العون والتوفيق.

رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

عمان في 20 رمضان سنة 1424هـ

الموافق 20 أيلول سنة 2008م.

المصادر والمراجع

1) ابن خاقان – أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي (ت سنة 529هـ– 1135م)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة بيروت ، 1403هـ – 1983م.

2) ابن الفرضي – أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي (ت: سنة 403هـ)، تاريخ علماء الأندلس (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس)، تحقيق د. روحية عبدالرحمن السويفي، بيروت، 1417هـ – 1997م.

3) ابن حزم – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، الأحكام في أصول الأحكام، ج1–2، إشراف أحمد شاكر، القاهرة.

4) ابن حزم– أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، التقريب لحد المنطق، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1959م.

5) ابن خلكان – أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (608هـ – 681هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1–8، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1397هـ–1977م.

6) ابن عصفور – ابن عصفور الإشبيلي (597هـ – 669هـ)، الممتع في التصريف، ج1–2، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثالثة.

7) الأنصاري – عبدالقدوس، مع كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي المتوفى سنة 379هـ، تحقيق الدكتور عبدالكريم خليفة، عرض ونقد وتحليل، بريدة، 1407هـ – 1987م.

8) الثعالبي – أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت: 429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج1–4 ، بيروت، 1979م.

9) الحميدي – أبو محمد بن أبي نَصْر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي الأندلسي (ت: سنة 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق د. روحية عبدالرحمن السويفي، بيروت، 1417هـ – 1997م.

10) خليفة– عبدالكريم، تيسير العربية بين القديم والحديث، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1407هـ – 1986م.

11) الزبيدي – أبو بكر الزبيدي الإشبيلي (ت: 379هـ) ، كتاب الواضح، تحقيق عبدالكريم خليفة، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1396هـ– 1976م.

12) الزبيدي – أبو بكر محمد بن الحسن (ت: سنة 379هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، 1373هـ– 1954م.

13) الزبيدي – أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة، 1373هـ – 1954م.

14) الزبيدي– أبو بكر محمد بن الحسن (ت سنة 379)، لحن العامة، تحقيق الدكتور عبدالعزيز مطر، القاهرة، 1981م.

15) سيبويه – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، ج1–5، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مصر، 1977م.

16) السيوطي– عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1–2، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه، محمد أحمد جادالمولى، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة.

17) السيوطي – جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، طبقات اللغويين والنحاة، ج1–2، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت – لبنان.

18) الصفدي – صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية، فيسبادن، 1401هـ – 1981م.

19) الضبي – أحمد بن يحي بن أحمد بن عُمَيْرة (ت: 599هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق د. روحية عبدالرحمن السويفي، بيروت، 1417هـ– 1997م.

20) القفطي – جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج1–4 ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ، بيروت، 1406هـ – 1986م.

21) المراكشي – أبو محمد عبدالواحد بن علي المراكشي (ت: 647هـ – 1250م)، المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به الدكتور صلاح الدين الهواري، صيدا، بيروت ، 1426هـ – 2006م.

22) النديم – أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق، كتاب الفهرست، تحقيق رضا – تجدَّد، طهران، 1391هـ – 1971.